مناقشات

نحن جيل لا نبيع انفسنا لاحد !

الى الاستاذ مجاهد عبدالمنعم مجاهد ـ

بقلم احمد يوسف داوود

بضربة يد « خفيفة شاطرة ! » يعدم الاستاذ مجاهد عبدالمنعم تسع قصائد من اصل عشر نشرت في العدد العاشر من الآداب لهذا العام ، وذلك في مقاله النقدي المنشور في العدد الحادي عشر .. وسابادر فاقرر اولا ان البراعة التي يتمتع بها في هذا المجال يحسد عليها !!

الا ان حزني على مصير قصيدتي وقصائد زملائي قد تلاشى عندما تاكدت في نهاية المقال « الدموي ! » ان الاستاذ مجاهد لا يعرف حقا ماذا يقول ـ وليس لديه غير فكرة « قبلية » اراد ان يكرسها، هي : ان جيل الشعراء الجدد ـ الجيل الاصغر كما يسميه ـ عاجز عن قول الشعر « العظيم ! » الذي يشبه ما ابدعه ، هو ، مجاهد عبدالمنعم ، باعتباره من شعراء الرعيل الاول ، حيث قرن نفسه الى عبدالصبور والبياتي وادونيس دون اي حرج !!.. ومن اجل تكريس تلك الفكرة التي سيطرت على الناقد « يعفس » بسرعة مدهشة تسع قصائد ثم تسعة شعراء ثم جيلا باكمله دون ان يرتعش له قدم!.

الا انني لاشد على يدك يا استاذ مجاهد على هذه الجراة وقوة القلب اللتين لا جراة ولا قوة .. بعدهما !

فبعد ان يمر بحوالي اربعة اسطر على كل قصيدة يبادر الى توضيح عقم الفكر فيها رغم تباين مستوى التجنيح يقول : (فمن اين ياتي التكوين ونسج الصور بشكل بناء اذا كانت القصائد خالية من فكرة محورية ، واذا كانت القصائد تكشف عن ان اصحابها لا يعرفون حتى مبادىء الفن ..) .

ولكن هذا ليس هو كل شيء فالرجل بعد هذه الادانة ذات الصبغة التعميمية التي لا تتفق مع اصول النقد في شيء ، يندفع وراء فكرته القبلية التي حددها لنفسه سلفا وهي « سحق الجيل الجديد » ويسلك لهذا سبيلا لا يختلف في شيء عن اساليب «اجدادنا السلفيين ! » الذين يرون ان الابداع كل الابداع انما تم في الماضي .. وليس على الشعر بعده الا ان يقلده : فهو يعمد الى الاشادة بالرعيل الاول وينوه بارتباطهم بالثقافة العالمية وباصالتهم ثم يعترف بفضلهم على الشعر الحر وتعميق انغامه والاهتمام بجمالياته والالتزام بالفكر الانساني ـ وهي والحق يقال صفات لا تنكر عليهم ـ ولكنه يخلص من كل ذلك الى « تصنيمهم » .. الى جعلهم الغاية التي تقف عندها حركة الشعر الحر متجاوزا بذلك كل « فهمه الجدلي »الذي عرفناه عنه في مقالاته النقدية المجردة ـ اعني غير التطبيقية ـ طالبا ان تكون القصائد الجديدة « تزويرا متقنا » لقصائد اولئك ، جاعلا المعيار هو المقارنة بين هذه وتلك .. ثم يقرر اخيرا ان :

(شعراء الجيل الاصغر .. باسم حزيران وباسم الحزن العربي وباسم شواطىء الجزائر وباسم قراء الكوفة والموصل يبررون نثر الشعر ...)

ها هي « الضربةالشاطرة » تكتمل ويمسح الناقد يديه مستريحا، وقد فرغ من مسالة هذا الجيل » الغشيم ! » نهائيا! شيء عظيم من تسع قصائد يدان جيل كامل ! ولكن ... مرة ثانية : النزعة التعميمية التي يسيرها الحكم القبلي بادانة هذا الجيل ، على مهر اعرج من القيم السلفية المرقشة بالوان الحداثة والعصرية !

والناقد لا يدع المناسبة تمر دون ان ينتهزها ، فيسلك نفسه بين ادونيس والبياتي وعبدالصبور ، والملائكة ، والقباني .. ظانا انه بذلك يحقق مكسبا شخصيا « يمر » على القارىء دون تمحيص!! ـ طبعا لم يذكر السياب ولا احمد عبدالمعطي حجازي ولا محمود درويش ولا بلند الحيدري ولا فدوى طوقان .. فربما كانوا لا يستحقون شرف المثول بحضرته ! ـ وقبل ان انتقل الى معالجة الاستاذ مجاهد للقصائد اود:

١ ـ ان اذكره ان لهؤلاء الشعراء من الرعيل ، على اختلاف اساليبهم وآراء الناس فيهم .. لكل منهم العديد من القصائد التي لا ترقى الى مستوى الشعر حقا . ورغم ذلك فهم شعراء بارزون ، لان لهم اشعارا اخرى ممتازة .. ولم يعدمهم النقاد بجرم كتابة قصيدة رديئة ذاتمرة!!

٢ ـ ان اهنيء الاستاذ فاروق شوشة على نجاة قصيدته من هذه المجزرة ولعلها قد شفع لها ان صاحبها من « الرعيل الاول » !

ولنعد الان الى بعض القصائد لنرى اسلوب الاستاذ مجاهد في النقد والتقييم وساكتفي بقصيدة « الدليل » لاحمد دحبور و« حسين مردان » لفوزي كريم ، وقصيدتي : (الرهان)

١ ـ الدليل لاحمد دحبور :

يجتزىء الناقد بعض العبارات من سياق القصيدة ليقرر على ضوئها ان القصيدة مذبوحة التجنيح ! مباشرة !! والسبب لانها قيلت في اطار مقتل غسان كنفاني الذي لا يمكن ان يعمد بالشعر ـ والكلام للناقد ـ وما الفرق بين هذه القصيدة ورثاء حافظ للملكة فكتوريا ؟ لا شيء الا في شرف الموضوع الاول ـ صبرا جميلا وبالله المستعان ـ والقصيدة ممزقة بلا تاسيس والصورة تضيع وسط المباشرة !

كل هذه الاحكام المحزنة على قصيدة ممتازة ماذا فيها من الاقتسار والتلفيق ؟

للاجابة على ذلك لا بد ان نتساءل : هل حقا ان غسان كنفاني لا يمكن ان يعمد بالشعر ؟ اليست حياة مناضل كغسان ، والقضية التي مات من اجلها والطريقة التي تم بها الموت ، مواد شعرية منسجمة مع اعمق ما في العصر من خصائص ايجابية وسلبية ؟

لا ريب ان الناقد يامرنا الا نكتب عن اي شهيد كما يتضح من كلامه .. لماذا ؟ احزروا ..!

لان الموضوع تناول من الخارج !اي نعم !

لن اعلق على المقارنة بين كتابة شاعر عربي معاصر او مقاتل فلسطيني كاحمد دحبور عن موت غسان كنفاني ، وبين مرثية حافظ لفكتوريا بغير ابتسامة على هذه السذاجة .. واقول سذاجة لحسن نيتي تجاه الناقد مجاهد !

ان احمد دحبور في الواقع يتناول القضية الفلسطينية في مرحلة صراع الثورة المصيري ضد اعدائها في الداخل والخارج من خلال تناوله لمقتل غسان .. واحمد دحبور ليس خارج عملية الثورة تلك وبالتالي فليست كتابته تناولا من الخارج .. انها تناول من صميم الداخل .. من كل الاحساس بمرارة ايلول والعرقوب وغيرهما ، بعد التشرد واستلاب الوطن وسكن المخيمات ..

احمد دحبور عرف فعلا الشعور بالنجاة بعد اجتياز النهر في عمليات المقاومة ، وخبر تحت الرصاص ـ لا عن طريق الجرائد ـ كيف يتاجر بالفلسطينيين اولئك المتمسكون ، ظاهرا ، بآية الكرسي ، بينما (يموع لعابهم نفطا على الصحراء) وعرف آلام مطاردة الجزارين للثوار ، ووصل اخيرا الى حقيقة انه (لن يأتي سوى الفقراء ..) هذه الحقيقة البسيطة التي تلخص كل ثورة الانسان في العصر الحديث والتي تحتاج دائما الى التاكيد عليها لترسيخها وسط كل التزويرات الثقافية والايديولوجية التي تتعرض لها الثورة العربية !!

احمد دحبور يخاطب غسان الذي يملأ القصيدة بحضوره دون ان يظهر ـ مجسدا كما في المراثي القديمة ـ يذكره بكل ما يعانيه الانسان الفلسطيني وبكل المرارة التي يتجرعها ليخلص الى قوله :

(ولن يأتي سوى الفقراء . مشعشعة خناجرهم . مطعمة خواصرهم .

بسم الحربتين : من الاقارب طعنتان ، وطعنة من حربة الغرباء.

وها هي ساحة الكون : تطاردك البلاد بحبها وامامك الاعداء.

وغير الروم خلفك فارس والروم والامراء .)

ان احمد دحبور يصوغ من (المزق البسيطة) قصيدة مدهشة فيها من الامل قدر ما فيها من المرارة . وفيها من الشاعرية قدر ما فيها من البساطة والاقناع .. وكان الاجدر بالناقد ان يعترف ان تناول مثل هذا الموضوع في السياق الذي ورد عليه ،وفي الاطار الواسع الكبير الذي اختاره الشاعر له ، امر صعب . وان خلوص القصيدة

من الابتذال ما كان ليتوفر كما توفر ، الا على يد شاعر يعاني فيستوعب معاناته في شعره مثل الشاعر احمد دحبور .

٢ ـ حسين مردان : لفوزي كريم

يقول الناقد بالحرف الواحد :

(يا قطار الشمال ، يا قطار الجنوب) و (تبولت بين الرصافة والبيت)

وشاعر مات .. وخواطر حول هذا الموت .. ورؤية من الخارج شان تناول الشخصيات الواقعة .. ولا شيء سوى ان شوارع بغداد تمتد . ولا تجنيح الا حيث ضريح الفرات الجميل وان الوطن غادر ، وكلما ازداد حبا كان اجمل .. ثم تساؤل كيف ترك حسين مردان الباب مفتوحا .. وهذا كل شيء فاين الشعر ؟ ـ انتهى كلام الناقد ـ ان احدا لا يعرف ، في الواقع ، كيف يبيح ناقد لنفسه ان «يعفس» قصيدة رائعة هذا العفس الغريب !.

(شاعر مات !!) ما قيمة هذا في نظر مجاهد عبدالمنعم ؟ العبارة في سياق حديثه تشبه عبارة (كلب ومات) ! اين الشعر في موت شاعر ؟ بل اين الشعر في الموت نفسه ..؟ هذه « السوبرمانية» التي لا تعبأ بالموت والتي نحسها في عبارات الناقد ، تهزا من القارىء وتتهمه بالغباء!!

هل نذكر الناقد ان احساس الانسان بمواجهته للموت وصراعه معه ، ومعرفته لمصيره .. كل ذلك قد خلق اعظم ما ابدع الانسان :بدءا من اسطورة تموز وملحمة جلجامش الى الاهرام ومعابد الفراعنة وتحنيط مومياواتهم المذهل .. الى كل الديانا والاساطير التي عرفتها الشعوب القديمة .. الى المسرح اليوناني .. الى .. الى ...؟؟

او حقا ان الانسان عندما يكتب خواطر حول موت انسان انفعل، شخصيا ، بحياته وموته يتناول الموضوع من الخارج ام انه يكون مكتوبا بلذع عناصر الموت الكامنة في اعماقه هو ؟

اترك الاجابة للناقد ، لاقول له ليس ذنب المبدع الا يتمكن الناقد من تجاوز مدرسية العبارات التي حفظها واستوعبها كمبدأ من مبادىء النقد ، ليصل الى حرارة التجربة التي يعانيها ذلك المبدع !.

ولست ادري لماذا يكلف الاستاذ مجاهد نفسه ، عند نقد قصيدة فاروق شوشة ، ان يكتب امام عبارة (واستسلم للعاهرة) : (رمز) !! بينما لا يرى الرمز العميق الاصيل في نداءات فوزي كريم للقطارات المسافرة في كل اتجاه ! الا ترمز هذه القطارات للحياة والزمان اللذين يتجمعان ويتبعثران ... يتلاقيان وينفرطان في كل اتجاه ؟ اوليست هذه المقدمة هي المدخل الفني المكثف ، الى الموت كظاهرة . والى حياة حسين مردان وموته كجزء متفرد في اطار تلك الظاهرة ؟؟

ولماذا يرى التجنيح في قول فاروق شوشة : (بل انت اروع من غدي الآتي ومن عمري الذي يمضي بلا معنى) ؟ اين التجنيح في هذه العبارة التي استهلكتها الاغاني المبتذلة التي نسمعها كل يوم عشرات المرات في عشرات الاذاعات ؟ ـ ومعذرة من الاستاذ فاروق فالحقيقة يجب ان تقال ـ ولماذا لم ير الناقد التجنيح في قول فوزي كريم :

(هل تريد اسمه ؟. كان يكره بغداد لكنه حين يستودع الله فيها يموت . علمته الشوارع كيف يباغت ضوءا وياسره .. علمه الفقراء المباحون والمستريحون في النفي حزنا قديما وحزنا جديدا . وحزنا تجاوزه بين مقهى الرصافة والبيت ..) وفي قوله :(ها هو البيت « عذراء » تولد والشرفة المترفة . تستضيء بك الان هل تلتجيء ؟. والنوافذ مطفأة .. ان سرا مباحا تدلى .وخطوك ما غادر العشق يا سيد الفقراء) بل لماذا لم ير التجنيح في تلك المقاطع الرائعة المرقمة ب : ١ و ٢ و٣ ؟؟

والجواب ان الناقد لم يكلف نفسه عناء قراءة القصيدة !

وحسين مردان يترك الباب مفتوحا ربما للصراع مع اعداء الفقراء او ضد الموت بعد ان عاش حياته الحافلة .. وتساؤل الشاعر هو: كيف يفعل ذلك وهو يعلم ان الليل لم يبدا وان السر مفضوح وان كل شيء يصطلح على القلب ليظل مجروحا ! تساؤل مسخه الناقد مسخا ..

وهذه الخاتمة الرائعة لا يستطيع مجاهد باسلوبه المدرسي ذي الاحكام القبلية الجاهزة ، ان يدركها . كما لم يدرك الحركة الداخلية العنيفة النابضة باستمرار في القصيدة ،لتقدم لنا شخصية شاعر كانت حياته فريدة مدهشة ، يكثفها في بساطة مشعة متالقة غزيرة ، المقطع المرقم ب «١» . اما التبول بين الرصافة والبيت فليس اكثر من تعبير عن الازدراء لهذا العالم الملوث المليء بالمرارة والصراع والموت دون جدوى .. وللاسف فالاستاذ مجاهد لم ير في ذلك اي رمز ، لانه على ما يبدو لا يستطيع التعامل باخلاص مع اية قصيدة ما لم تكن لاحد اصدقائه !

٣ ـ الرهان : لاحمد يوسف داود

قصيدتي المسكينة وقعت هي الاخرى بين يدي الاستاذ مجاهد ، وقبل ان يعمل سكينه في عنقها لم يستطع غير ان يعترف (بعذوبة ايقاعها الشفيف وجماليتها الآسرة ورقة صياغتها) وبعد ان يستعرض مقطعا منها يتساءل ويجيب (ولكن حول ماذا يدور هذا التجنيح؟ لا شيء سوى عتامة الغرض الذي لا يبين عن شيء ..)

مرحى استاذ مجاهد .. مرحى !! هكذا فليكن الذبح المتقن والا فلا !!

احقيقة ان قصيدتي لا تقول شيئا ؟؟ انني اخاطب امراة منذ اللحظة الاولى بقولي : (تستعمل الكلمات سيدتي بوجهها . للحب احيانا وللتصفيق احيانا ..) فهل يعتقد السيد مجاهد ان المراة في الشعر لا تخرج عن كونها المراة التي في علم التشريح او مناظر دعاية الكباريهات .

منذ القديم كانت المراة رمزا للخصب ـ الولادة ـ التحول ..وهذا الرمز تمتلكه الطبيعة بمعنى ما .. كما تمتلكه بمعنى آخر ، الثورة التي يحترق عصرنا وجيلنا من اجل ان تكتمل .. وادراك هذا ليس معضلة حتى بالنسبة لابسط المتعاملين مع الشعر من ذوي الثقافة العادية !

شيء عجيب ان ناقدا كالاستاذ مجاهد لم تستفزه ماهية هذه المراة التي نركض من اجلها خائفين والتي تبدا من صلة مقطعة في ارض معطلة وازمنة معطلة .. ومن آلام السنين التي ترزح تحتها. هذه المراة التي من اجلها تغوص الاف السياط حتى القلب . والتي لا تتوقف عن ذكرها رغم انطفاء حرارة الاشياء . والتي هي (اخر هجرة بين السلام وبين سيف الحب) .. هذه المراة التي انتهت الى الاغاني وكبرت فيها بائسة مزورة وصارت زنبقة من الشمع العتيق ... هذه المراة التي من اجلها تميل الاعناق ولضياء مستوى الموت القريب .. ولا يجيء ظلها ولا يغيب .. هذه المراة التي ننتظرها في الضياء المستحيل ونعاني من اجلها وجع التحول .. ونراهن عليها بدمائنا ...!

شيء عجيب كيف لم تستفزه هذه المراة المتحولة في حركة دائبة داخل القصيدة لترسم لنا صورة غنية بالشعر ، عن واقعنا ؟؟

ومن المؤكد ان الاستاذ مجاهد لو الهمه الله حل ذلك « اللغز المستعصي !! » لبدت القصيدة حارة متالقة .. ولكن ..!

كلمة اخيرة اود ان اقولها للاستاذ مجاهد : نحن يا سيدي جيل مرغم ان يغوص في الهزيمة حتى قرارتها .. ولكن لن يختنق بها لانه اكتشف ان الصراع لا مفر منه !!وهذا الاكتشاف يظل هو الامل الكبير الذي ينشر ضوءه متدفقا عبر الظلمة الكثيفة الضاربة حتى اعماق الحياة العربية . اننا حين نكتب انما نكتب مدفوعين بعنف الدوامة التي تحاصر امتنا .. ولسنا ابدا ذلك الجيل الذي لا يسير الا متطلعا دائما الى الخلف كما تريد لنا !! اننا نكرس الانسان ـ كما فعل الرعيل الاول تماما واكثر ـ ولكن .. من خلال معاناتنا نحن لا من خلال احلامكم ، وبوسائلنا الخاصة لا بتقليد وسائلكم وتزويرها .. ولن يستطيع احد ان « يعفسنا » كما فعلت انت !.

ان الذنب ليس ذنبنا في انك لم تتامل جيدا طبيعة جيلنا وطبيعة معاناته واستجاباته اننا ندعوك للتعامل معنا بفهم وثقة لا بعداء مسبق ! فلن نرضخ لاحكامك لمجرد انك تسجل اسم عشرين او ثلاثين مرجعا اجنبيا في آخر ابحاثك النقدية .

واؤكد لك اننا لسنا جاهلين كما قلت ولسنا عقيمين كما تدعي .. غير اننا لا « نوثن » احدا ولا نبيع انفسنا لاحد !! وليكن نقدك لنا مصوغا على ضوء ما نكتب ـ نحن الجيل الجديد ـ فان تكون كتابتنا منسجمة دائما مع ما تقرره لنا من « روشتات » ادبية ..

وشكرا للاداب ، ولك تحياتي

سورية ـ دريكيش — **احمد يوسف داود**